الشيطان كما يصوّره القرآن

ما يكاد الرجل البصير يتذكر « الشيطان » أو يسمع اسمه ، حتى يردد بلسانه أو جنانه : « أعوذ بالله من الشيطان الرجيم » . فأى دافع يدفعنا – مع رضا واختيار – إلى الحديث عن ذلك الشيطان اللعين ؟ !

لا بأس ، فحديثنا عن الشيطان سيكون كما يصوره القرآن ، فإن كان للشيطان وسوسة وبهتان ، ففى القرآن عصمة وأمان ، والله خير مستعان .

هناك كلمات ثلاث تتردد فى هذا المجال ، هى : الشيطان ، والجن ، وإبليس ، وفى اللغة أن الشيطان هو كل عات متمرد من الإنس والجن والحيوان . وقال أبو عبيدة إن الشيطان اسم لكل عارم من الجن والإنس ، والشيطان مخلوق خبيث لا يراه الإنسان ، يغرى بالفساد والشر . وفى الحديث النبوى الذى رواه مسلم فى صحيحه : « إن الشيطان يبعث سراياه – جنوده فيفتنون الناس ، فأعظمهم عنده أعظمهم فتنة » . والشيطان وإبليس والعفريت بمعنى واحد وهو العاتى المتمرد من الجن ، وبذلك يكون الشيطان من الجن ، وقد فرقوا بينهما بأن الجن منه صالح وخبيث ، والشيطان لا يكون إلا خبيثاً ، فكأنه نوع خاص من الجن .

ويروون أن إبليس كان من الملائكة ، فلما عصى اللهَ ، وأبى السجود ، غضب الله عليه ولعنه ، ومسخه شيطاناً رجيماً ؛ ويروون أن اسمه قبل العصيان كان « عزازيل » ، ثم صار اسمه « إبليس » . ومن أسمائه « الحارث » ، وكنيته « أبو مرة » . ويصفه القرآن الكريم بقوله : « وإنْ يَدْعُونَ إلَّا شَيْطاناً مَرِيداً » (النساء ١١٧) . والمريد هو العاتي المتمرد ، الخارج عن الطاعة ، الظاهر الشر . وقد تكررت مادة « الشيطان » فى القرآن ما يقرب من ثمانين مرة .

وقد يطلق على الشيطان اسم « الجان » أو « الجن » . وفى سورة الأنعام جاء قوله تعالى . « وجَعَلُوا للهِ شُركاءَ الجِنَّ » (الأنعام ١٠٠) : أى جعل المشركون لله شركاء هم الجن ، وقد ذكر أهل التفسير أن المراد بالجن الملائكة ، لأن المشركين عبدوا الملائكة ، أو الشياطين ، لأن المشركين أطاعوهم فى أمور الشرك والمعاصى ، أو المراد إبليس بالذات ، فقد عبده أقوام وسموه ربًّا ، ومنهم من سماه : إله الشر.

والظاهر أن الملائكة ليسوا من الجن إلا بالمعنى اللغوى . أى أنهم مستترون ، أو يكون إطلاق كلمة « الجن » على الملائكة إطلاقاً مجازيًّا ؛ لأن القرآن يقول : « ويَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ يَقُولُ للملائِكَةِ أهَؤُلاءِ إيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدونَ ؟ قالُوا : سُبْحانَكَ أنْتَ ولِيُّنا مِنْ دُونِهِمْ ، بَلْ كانُوا يَعْبُدونَ الجِنَّ أكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ » . (سبأ الآيتان ٤٠ — ٤١) .

▫ ▫ ▫

والقرآن الكريم يحدثنا عن الشيطان والجن وإبليس وجنوده ، فيقرر وجود خَلْق آخر غير الإنسان ، لا ترى مادته ، ولا نعرف حقيقته ، ومنه الشيطان وقد تكرر ذكره لمعشر الإنس والجن ، وقال فيما قال : « سنفرغ لكم أيها الثقلان » وهما الإنس والجن ، ويكفر الإنسان إذا أنكر وجود الشيطان أو الجن ، لأن

كتاب الله قد صرح بوجودهم ، ويقرر بصراء المفسرين أن هذه المخلوقات من عالم الغيب ، لا نعلم حقائقها ، ولا نبحث عنها ، ولا نقول بنسبة شيء إليها ، مالم يرد لنا فيه نص ثابت عن المعصوم رسول الله عليه الصلاة والسلام .

وهناك كثيرون ينكرون وجود الشياطين والجن ، ويعيب هذا الإنكار أحدُ بصراء المفسرين بقوله : « أما الذين ينكرون وجود هذا الخَلْق إطلاقاً فلا أدرى علام يبنون هذا الإنكار ، بصيغة الجزم والقطع ، والسخرية من الاعتقاد بوجوده ، وتسميته خرافة .

ألأنهم عرفوا كلّ ما فى هذا الكون من خلائق فلم يجدوا الجن من بينها ؟ إن أحداً من العلماء لا يزعم هذا حتى اليوم . وإن فى هذه الأرض وحدها من الخلائق الحية لكثيراً مما يكشف وجوده يوماً بعد يوم ، ولم يقل أحد إن سلسلة الكشوف للأحياء فى الأرض وقفت ، أوستقف فى يوم من الأيام .

ألأنهم عرفوا كل القوى المكنونة فى هذا الكون فلم يجدوا الجن من بينها ؟ إن أحداً لا يدعى هذه الدعوى ، فهناك قوى مكنونة تكشف كل يوم ، وهى كانت مجهولة بالأمس ، والعلماء جادون فى التعرف إلى القوى الكونية ، وهم يعلنون فى تواضع قادتهم إليه كشوفُهم العلمية ذاتها ، أنهم يقفون على حافة المجهول فى هذا الكون ، وأنهم لم يكادوا يبدءون بعد .

ألأنهم رأوا كل القوى التى استخدموها ، فلم يروا الجن من بينها ؟ ... ولا هذه ، فإنهم يتحدثون عن الكهرب بوصفه حقيقة علمية منذ توصلوا إلى تحطيم الذرة ، ولكن أحداً منهم لم ير الكهرب قط ، وليس فى معاملهم من الأجهزة ما يفرزون به كهربا من هذه الكهارب التى يتحدثون عنها .

ففيم إذن هذا الجزم بنفى وجود الجن ، ومعلومات البشر عن هذا الكون وقواه وسكانه من الضآلة بحيث لا تسمح لإنسان يحترم عقله أن يجزم بشيء ؟

إن القرآن يحدثنا بأن الشيطان مخلوق من النار ، فيقول : « ولَقَدْ خَلَقْنَا الإنْسَانَ مِنْ صَلْصالٍ مِنْ حَمإٍ مَسْنُونٍ . والجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ » . (الحجر الآيتان ٢٦ ، ٢٧) ويقول : « وخَلَقَ الجانَّ مِنْ مارجٍ مِنْ نَارٍ » (الرحمن الآية ١٥) ولكونه من ذلك اختص بفرط القوة الغضبية والحميَّة الذميمة ، وامتنع من السجود لآدم ، وقال قولة السوء : « خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ » ولذلك يقول القرآن : « وإذْ قُلْنَا لِلْملائِكةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إلَّا إبْلِيسَ كانَ مِنَ الجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أمْرِ رَبِّهِ » (الكهف الآية ٥٠) .

وعمر الشيطان طويل ممتد ، لأنه يمثل قوة الشر في الكون ، ولأنه ابتلاء واختبار ، ولذلك جاء في سورة الأعراف عن الشيطان : « قَالَ أنْظِرْنِي إلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ، قالَ إنَّكَ مِنَ المُنْظَرِينَ ، قال فَبِمَا أغْوَيْتَنِي لأقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ المُسْتَقِيمَ ، ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِنْ بَيْنِ أيْدِيهِمْ ومِنْ خَلْفِهِم وعَنْ أيْمَانِهِم ، وعَنْ شَمائِلِهِمْ ، ولا تَجِدُ أكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ، قال اخْرُجْ مِنْها مَذْءُوماً مَدْحوراً لَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لأمْلأنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أجْمَعِينَ » (الآيات من ١٤ – ١٨) .

وهكذا يظل الشيطان إلى ما قبل البعث والحساب ويظل – كما رووا – إلى النفخة الأولى حيث يموت الخلق كلهم ، وقد طلب الشيطان أن يظل إلى النفخة الثانية حيث يقوم الناس لرب العالمين ، فأبى الله عليه ذلك .

والشيطان يرى الناس وهم لا يرونه . يقول القرآن : « يا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطانُ كما أخْرَجَ أبَوَيْكُم مِنَ الجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُما لِباسَهُما لِيُرِيَهُما سَوْآتِهِما ، إنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ ، إنَّا جَعَلْنَا الشَّياطِينَ أوْلِياءَ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ » (الأعراف ٢٧) .

والشيطان يحاول أن يستميل كل إنسان إلى الشر ، ولكن الذاكر لله يتأبى

على ذلك ، ولذلك يقول الله جل جلاله للشيطان : « إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِم سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الغَاوِينَ »(الحجر الآية ٤٢). فكأن سيطرة الشيطان تكون على الضعفاء فى الإيمان والعقل والعزيمة ، ولذلك حلا لبعض أئمة التفسير أن يشبه الشياطين بالميكروبات ، فذكر أن قرناء السوء من الشياطين كمثل جراثيم الأمراض ، حيث تمس كل أحد من الناس ، فمن كان قوى المزاج معتدل المعيشة متقياً لها بما يرشد إليه الطب من النظافة واستعمال المطهرات القاتلة لها فإنها قلما تصيبه ، وإذا أصابته فلا تضره ، بل قد تنفعه بتعويد مزاجه على المقاومة ، ومن كان ضعيف المزاج مسرفاً فى المعيشة ، غير متق لها بمثل ما ذكرنا ، فإنها تؤذيه ، ويحدث له بسببها من الأمراض والأدواء ما يكون به على شفا الهلاك أو يكون من الهالكين .

ولكن النفس الزكية التقية المهتدية بالقرآن والسنة ، لا يكاد الشيطان يضلها ، وإذا طاف بها طائف من وسوسته فى حال الغفلة تذكرت فإذا هى مبصرة محاذرة ، فمثلها فى عدم تأثير الوسوسة فيها ، كمثل البدن القوى فى عدم استعداده لفتك جراثيم الأمراض به ، كما أن النفس الفاسدة الفطرة بالشرك أو النفاق والمعاصى وسوء الأخلاق ، تكون مستعدة لطاعة الشيطان ، كاستعداد البدن الضعيف والمزاج الفاسد لتأثير ميكروبات الأمراض . ومن الأرواح والأبدان ماليس فى منتهى القوة ولا غاية الضعف ، فكل منها يتأثر بقدر استعداده ، وتكون عاقبته السلامة إن كان أقرب إلى الصحة والقوة ، أو الهلاك إن كان بضد ذلك .

ولقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم – فيما رواه البخارى – : « الشيطان جاسم على قلب ابن آدم ، فإذا ذكر الله تعالى خنس ، وإذا غفل وسوس » .

وتحدثت السيدة عائشة فقالت : خرج النبى صلى الله عليه وسلم من

عندى ليلا ، فغرت عليه ، فجاء فرأى ما أصنع (من أثر الغيرة) فقال : مالك يا عائشة ؟ أغرت ؟

قلت : ومالى لا يغار مثلى على مثلك ؟

فقال : أقد جاءك شيطانك ؟ .

قلت : يارسول الله ، أمعى شيطان ؟

قال : نعم .

قلت : ومع كل إنسان ؟

قال : نعم .

قلت : ومعك يارسول الله ؟

قال : نعم ، ولكن ربى أعاننى عليه حتى أسلم (أى حتى أنجو من شره) .

والشيطان خبيث ماكر ، يحتال بشتى الوسائل وأدق المداخل ليتمكن من الإغواء والإضلال ، ولذلك صورته لنا السنة المطهرة بأنه يجرى من ابن آدم مجرى الدم ، فقد مرَّ اثنان على رسول الله ومعه زوجته صفية ، فأسرعا ، فقال لهما النبى : على رسلكما ، إنها صفية بنت حيي (أى زوجتى) . فقالا : سبحان الله يارسول الله . فقال : إن الشيطان يجرى من الإنسان مجرى الدم ، وإنى خشيت أن يقذف فى قلوبكما سوءًا .

ولذلك وصف القرآن الشيطان بأنه « الوسواس الخناس » والخناس من خنس يخنس إذا توارى واختفى ، وفى ذلك يقول ابن القيم : « فإن العبد إذا غفل عن ذكر الله جثم على قلبه الشيطان وانبسط عليه ، وبذر فيه أنواع الوساوس التى هى أصل الذنوب كلها ، فإذا ذكر العبد ربه ، واستعاذ به انخنس وانقبض ، كما يخنس الشيء ليتوارى » .

ويرى بعض بصراء المفسرين أن فى وصف القرآن للشيطان بوصف

« الخناس » لفتة ذات مغزى ، فهذه الصفة تدل من جهة على تخفيه واختبائه ، حتى يجد الفرصة سانحة فيدب ويوسوس ؛ ولكنها من جهة أخرى توحى بضعفه أمام من يستيقظ لمكره ، ويحمى مداخل صدره ، فهو إذا ووجه بالذكر خنس واستتر ، وعاد من حيث أتى ، وقبع واختفى ، أوكما قال الحديث السابق فى تصويره الدقيق : « فإذا ذكر الله تعالى خنس ، وإذا غفل وسوس » .

وهذه اللفتة تقوى قلب الإنسان على مواجهة الشيطان الوسواس ، لأنه خناس ، ضعيف أمام عدة المؤمن فى المعركة . ولكنها من ناحية أخرى معركة طويلة لا تنتهى أبداً ، فهو على الدوام قابع خانس ، مترقب للغفلة ، واليقظة لا تغنى عن اليقظات ، والحرب سجال إلى يوم القيامة ، كما صورها الكريم فى مواضع شتى .

ولقد يصل الإنسان التقى درجة يخافه فيها الشيطان ، وذلك كما تحدث النبى عليه الصلاة والسلام إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، حيث قال له: « والـذى نفسى بيده ما لقيك الشيطان قط سالكاً فجًّا (طريقاً) إلا سلك فجاً غير فجك » .

والشيطان – كما يخبرنا القرآن – يُضرب مثلا فى قبح الصورة ، ولذلك قال القرآن عن شجرة الزقوم : « إنَّها شَجَرَةٌ تَخْرُج فى أصْل الجَحيم ، طَلْعُها كأنَّه رُءُوسُ الشَّياطِين » (الصافات ٦٤ ، ٦٥) . والسنة من وراء القرآن الكريم تجعل صورة الشيطان صورة منكرة ، فيروى البخارى قول النبى : « إذا سمعتم نهيق الحمار فتعوذوا بالله من الشيطان فإنه رأى شيطاناً » . وإن أنكر الأصوات لصوت الحمير ، وإن الطيور على أشكالها تقع .

والتثاؤب – وهو دليل التراخى والكسل – يأتى به الشيطان ، ولذلك يقول الحديث النبوى : « وأما التثاؤب فإنما هو من الشيطان ، فإذا تثاءب أحدكم

فليرده ما استطاع ، فإن أحدكم إذا تثاءب ضحك منه الشيطان » وإنما يضحك الشيطان إذا شهد من الإنسان مشهداً يعاب ويؤخذ عليه .

والشيطان هو الذى يسبب للمرء الإسراف فى النوم حتى تضيع عليه الصلاة . يقول النبى مصوراً ذلك : « يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم – إذا هو نام – ثلاث عُقَد : يضرب على كل عقدة مكانها : عليك ليل طويل فارقد . فإن استيقظ فذكر الله انحلت عقدة ، فإن توضأ انحلت عقدة ، فإن صلى انحلت عقده كلها ، فأصبح نشيطاً طيب النفس ، وإلا أصبح خبيث النفس كسلان » .

ولقد ذكروا عند الرسول صلوات الله وسلامه عليه رجلا نام حتى فاتته صلاة الصبح فقال : « ذاك رجل بال الشيطان فى أذنيه » .

ومن صور الشيطان البغيضة ما جاء فى الحديث : « إذا نودى للصلاة أدبر الشيطان وله ضُراط حتى لا يسمع التأذين ، فإذا قُضى النداء أقبل » . وإنما يقبل للتشكيك والتضليل .

* * *

وفى القرآن المجيد سورة تسمى « سورة الجن » ، ومن الجن يخرج الشياطين كما عرفنا ليمثلوا عنصر الشر والفساد ، ويبقى فى الجن صالحون وطالحون ، وهذه السورة تخبرنا بجملة من الحقائق .

أولا : الجن حقيقة واقعة ، فهى تقول : « قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً » .

ثانياً : منهم المؤمنون الذى يصفون القرآن بأنه « يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَداً » . ومنهم الصالحون والطالحون . « وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَداً » أى مذاهب متفرقة ، ومنهم المسلمون المهتدون ،

والجاحدون الضالون ، ولكل جزاؤه : « وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ (الجائرون عن طريق الحق) فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَداً . وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَباً » .

ثالثاً : الجن لا ينفعون الناس : « وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقاً » .

رابعاً : الجن لا يعلمون الغيب : « وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً » .

خامساً : أنهم لا قدرة لهم أمام قدرة الله وسلطانه : « وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَباً » .

* * *

ولعل أبرز قصة للشيطان في القرآن هي قصته مع آدم ، حيث أبى الشيطان أن يسجد لأبي البشر ، واستحق على ذلك التكبر الطردَ من الجنة ، ثم عاد فوسوس إلى آدم حتى أكل من الشجرة ومعه حواء ، وترتب على ذلك نزول آدم وحواء من الجنة إلى الدنيا ، ونشأت العداوة الدائمة بين الإنسان والشيطان .

يقول الله تعالى عن ذلك في سورة الأعراف : « وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ، قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ » (الآيتان ١١ ، ١٢) .

ثم قال بعد ذلك بآيات : « ويا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ، فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ . وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ

فَدَلَّاهُما بِغُرُورٍ فلمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُما وطَفِقَا يَخْصِفانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الجَنَّةِ وَنَادَاهُما رَبُّهما أَلَمْ أَنْهَكُما عَنْ تِلْكُما الشَّجَرَةِ وأَقُلْ لَكُما إِنَّ الشَّيْطانَ لَكُما عَدُوٌّ مُبِينٌ . قَالَا ربَّنا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وتَرْحَمْنَا لَنَكونَنَّ مِنَ الخاسِرِينَ ، قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لبعْضٍ عدوٌّ ولَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ ومَتَاعٌ إِلى حِينٍ » (الآيات من ١٩ — ٢٤) .

ولقد حاول الشيطان بسبب عداوته الدفينة للإنسان أن يفسد هو وأتباعه عقائد الناس ، وأن يبتدعوا لهم مالم يشرع الله ولم يأذن به ، ولذلك يقول القرآن فى سورة النساء : « إِنَّ اللهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ ويَغْفِرُ ما دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يشَاءُ ، ومَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالًا بَعِيداً . إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِناثاً وإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطاناً مَرِيداً ، لَعَنَهُ اللهُ وقالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيباً مَفْرُوضاً ولأُضِلَّنَّهُمْ ولأُمَنِّيَنَّهُمْ ولآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الأَنْعَامِ ولآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللهِ ومَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْراناً مُبِيناً . يَعِدُهُمْ ويُمَنِّيهِمْ وما يَعِدُهُمُ الشَّيْطانُ إِلَّا غُرُوراً ، أُولئِكَ مأْواهُمْ جَهَنَّمُ ولا يَجِدُونَ عَنْها مَحِيصاً » . (الآيات من ١١٦ — ١٢١) .

ويبين أهل التفسير معنى هذه الآيات بما خلاصته : إن هؤلاء المشركين لايدعون لقضاء حوائجهم إلا إناثاً كاللات والعزى ، وهى معبودات عاجزة ، لاتملك لهم ضراً ولا نفعاً ، وما يدعون إلا شيطاناً خبيثاً من عادته الإغواء والإضلال ، أخزاه الله وأبعده عن مواطن فضله ورحمته .

وقال الشيطان اللعين : إنى مأتخذ من الناس نصيباً مفروضاً معيناً ، وهو ما فى النفوس من استعداد للشر ، ليخدعهم ويضلهم . وقال إنه سيعمل على إضلال الناس وصرفهم عن طريق الحق والهدى ، وسيزين لهم الاستعجال إلى اللذات والشهوات والتسويف بالتوبة وبالعمل الصالح ، وسيأمرهم ليقطعوا

آذان بعض الأنعام ، كما كانوا يفعلون فى الجاهلية ، حيث كانوا يشقون آذان بعض الإبل شقًّا طويلا ، ولا يحملون عليها شيئاً . وهذا من سخف الجاهلية وسفه الوثنية .

وأنه سيأمرهم أيضاً ليغيروا خلق الله بالتشويه والتمثيل وقطع الأطراف .

ومن يتخذ الشيطان وليًّا له ، ويتبع وسوسته فقد خسر خسراناً ظاهراً فى دنياه وأخراه ، لأنه سيصير أسيراً للأوهام والخرافات ، لأن الشيطان يعد الناس بالفقر إذا هم أنفقوا فى سبيل الله ، ويمنيهم بالأمانى الكاذبة التى لا ثمرة لها ، وهو لا يعدهم إلا بالباطل الذى يغترون به ويخدعون ، وهؤلاء الذين يتبعون الشيطان ويطيعونه ينتهون إلى نار جهنم لا يجدون عنها مصرفاً يفرون إليه .

* * *

هذا ونستطيع أن ننتزع من القرآن مجموعة من صفات الشيطان التى تصور سيئاته ومنكراته ، وهى :

١ الخديعة ، وتتجلى فى مخادعة الشيطان لآدم وزوجته حتى دفعهما إلى الأكل من الشجرة المحرمة ، ولذلك يقول القرآن : « فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ » (البقرة ٣٦) .

٢ – الوعد بالفقر والأمر بالسوء والفحشاء ، ولذلك يقول الله تعالى : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِى الأَرْضِ حَلالاً طَيِّباً ، ولا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ . إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ والفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللهِ مالا تَعْلَمُونَ »

(الآيتان ١٦٨ – ١٦٩) .

٣ – إيقاع العداوة والبغضاء : « يأيُّها الَّذين آمنُوا إنَّمَا الْخَمْرُ والْمَيْسِرُ وَالأَنْصَابُ والأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فاجْتَنِبُوهُ لعَلَّكُمْ تُفْلِحُون . إنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِع بَيْنَكُم العداوة والْبَغْضَاء فِى الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ ويَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وعن الصَّلاة فهلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ » (المائدة الآيتان ٩٠ ، ٩١)

٤ – تزيين السوء : « وزيَّن لَهُم الشَّيْطانُ ما كانُوا يعْمَلُون » « قالَ ربِّ بِما أَغْوَيْتَنِي لأزيِّنَنَّ لَهُمْ فِى الأرض ولأُغْوِيَنَّهُمْ أجْمعين . إلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلَصِينَ » (الحجر ٣٩ ، ٤٠) . « وإذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أعْمالَهُمْ وقالَ لاَ غَالِبَ لَكُمُ اليَوْمَ مِنَ النَّاسِ ، وإنِى جارٌ لَكُمْ ، فَلَمَّا تَرَاءَت الفِئتانِ نكص عَلَى عقِبَيْهِ وقال إنِّى بَرِيءٌ مِنْكُمْ إنِّى أَرَى ما لا تَرَوْن إنِّى أَخَافُ اللهَ واللهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ » (الأنفال ٤٨) .

٥ الإنساء : « وإمَّا يُنْسِيَنَّكَ لشَّيْطانُ فلا تقْعُدْ بعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِين » (الأنعام ٦٨) .

٦ الوسوسه ، وأخطرها الوسوسة فى العقيدة والإيمان : « قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ، ملكِ النَّاسِ ، إلهِ النَّاس ، مِنْ شَرِّ الوسْوَاسِ الخَنَّاسِ » (سورة الناس من ١ – ٤) . ويقول الرسول عليه الصلاة والسلام : « يأتى الشيطان أحدكم فيقول : من خلق كذا ؟ من خلق كذا ؟ حتى يقول : من خلق ربك ؟ فإذا بلغه فليستعذ بالله وليته » .

يقول ابن القيم عن الشيطان :

« ومن وسوسته أيضاً أن يشغل القلب بحديثه حتى ينسيه ما يريد أن يفعله ، ولهذا يضاف النسيان إليه اضافته إلى سببه . قال تعالى حكاية عن صاحب موسى أنه قال إلى نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره » .

وتأمل حكمة القرآن وجلالته كيف أوقع الاستعاذة من شر الشيطان الموصوف بأنه الوسواس الخناس الذى يوسوس فى صدور الناس ، ولم يقل من شر وسوسته ، لتعم الاستعاذة شره جميعه ، فإن قوله : « من شر الوسواس » يعم كل شر ، ووصفه بأعظم صفاته وأشدها شرًّا وأقواها تأثيراً وأعمها فساداً ، وهى الوسوسة التى هى مبادئ الإرادة ، فإن القلب يكون فارغاً من الشر والمعصية ، فيوسوس إليه ، ويُخطر الذنب بباله ، فيصوره لنفسه ، ويمنيه ويشهيه ، فيصير شهوة ، ويزينها له ويحسنها ويخيلها له فى خيال تميل نفسه إليه ، فيصير إرادة ، ثم لا يزال يمثّل ويخيّل ويمنّى وينسّى علمه بضررها ، ويطوى عنه سوء عاقبتها ، فيحول بينه وبين مطالعته ، فلا يرى إلا صورة المعصية والتذاذه بها فقط ، وينسى ما وراء ذلك ، فتصير الإرادة عزيمة جازمة ، فيشتد الحرص عليها من القلب ، فيبعث الجنود فى الطلب ، فيبعث الشيطان معهم مدداً لهم وعوناً ، فإن فتروا جرهم ، وإن ونوا أزعجهم ، كما قال تعالى : « أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا » (مريم ٨٣) أى تزعجهم إلى المعاصى إزعاجاً ، كلما فتروا أو ونوا أزعجتهم الشياطين وأزتهم وأثارتهم .

فلا تزال بالعبد تقوده إلى الذنب ، وتنظم شمل الاجتماع بألطف حيلة وأتم مكيدة » .

٧ - المس : « إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُم طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ » (الأعراف ٢٠١) .

٨ - الاستهواء وهو الإضلال : « كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الأَرْضِ حَيْرَانَ » (الأنعام ٧١) ، ويُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالاً بَعِيداً (النساء ٦٠)

٩ - الإباء والاستكبار والكفر : « إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الكَافِرِينَ » (البقرة ٣٤) .

١٠ عداوته العميقة للإنسان : « إِنَّ الشَّيْطانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّما يَدْعُو حِزْبَه لِيَكُونُوا من أَصْحابِ السَّعِيرِ » (فاطر الآية ٦) .

* * *

ولهذه السيئات والمقابح والمآكر وغيرها المتجمعة فى الشيطان اللعين كان من الواجب على الإنسان أن يستعيذ منه بالله جل جلاله القائل : « وإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ » (الأعراف ٢٠٠) . أى إذا حاول الشيطان أن يبدأ معك الوسوسة فالجأ إلى الله ، وتحصن به ليصونك منه . والقائل : « وقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِن هَمَزَاتِ الشَّياطِينِ ، وأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ » (سورة المؤمنون الآيتان ٩٧ ، ٩٨) . أى أعتصم بك يا رب من وسوستهم ، وأن يحضرونى فى أمورى ، لأنهم لا يحضرون إلا بالشر والسوء .

والسنة المطهرة تدلنا على أن عبارة الاستعاذة ، هى أن يقول الإنسان بلسانه وجنانه فى إخلاص ورجاء ، « أعوذ بالله من الشيطان الرجيم » فقد استب رجلان ، فاحمر وجه أحدهما وانتفخت أوداجه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنى لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد ، لو قال أعوذ بالله من الشيطان ، ذهب عنه ما يجد » .

والقرآن يرشد الإنسان إلى أن يقول فى الاستعاذة : « أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ، مَلِكِ النَّاسِ ، إِلَهِ النَّاسِ ، مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ، الَّذِى يُوَسْوِسُ فى صُدُورِ النَّاسِ ، مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ » .

وبعض الأئمة يتوسع فيوجه إلى الطريقة التى يعتصم بها العبد من الشيطان ويحترز من شره ، فيذكر الأمور التالية :

١ – الاستعاذة بالله .

٢ – قراءة سورة الفلق والناس .

٣ قراءة آية الكرسى .

٤ – قراءة سورة البقرة ، وخاتمتها وهى : « آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه » ، إلى نهايتها .

٥ – قراءة سورة المؤمن من بدايتها حتى قوله تعالى : « لا إله إلا هو إليه المصير »

٦ – أن يقول مائة مرة . لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، له الملك والحمد ، وهو على كل شىء قدير .

٧ – كثرة ذكر الله عز وجل .

٨ – الوضوء والصلاة .

٩ – إمساك فضول النظر والكلام والطعام ومخالطة الناس .

وأرى أنه لا موجب لهذا التوسع ، والعمدة على الإخلاص وصدق الرجاء .

* * *

والقرآن يحذر الإنسان أن يصحب الشيطان ، لأن العاقبة لذلك هى الخسران ، ولذلك يقول القرآن : « وَمَنْ يَكُنِ الشَّيطانُ لَهُ قَرِيناً فَساءَ قَرِيناً » (النساء الآية ٣٨) . ويقول : « وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ ولِيًّا مِنْ دُونِ اللهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَاناً مُبِيناً » ، (سورة النساء ١١٩) ويقول : « وكان الشَّيْطانُ للإنْسان خَذُولا » (الفرقان الآية ٢٩) . ويقول : « ألا إنَّ حِزْبَ الشَّيطان هُم الخاسِرُون » (المجادلة الآية ١٩) .

وحذر القرآن الإنسان أن يتبع خُطوات الشيطان ، وهى كل أمر يخالف سبيل الحق والخير فقال : « ولا تَتَّبعُوا خُطُوات الشَّيْطان إنَّهُ لَكُمْ عَدوٌّ مُبِينٌ » (البقرة الآية ١٦٨) . وكرر هذا المعنى فى عدة آيات .

* * *

أما بعد ، فقد طال مدى الحديث ، وجاوز نطاقه ، وما زال حديث الشيطان اللعين ذا شُعب وشجون ، فلنقف عندما كان ، ولنكتف بما سبق ، ولنتحصن بحصن الله ضد الوسواس الخناس ، ولنقل عند النهاية ما قلناه عند البداية : نعوذ بالله العلي العظيم من الشيطان الرجيم .

وقل : سلام .

obeikandl.com